تولستوي

ان البلاد الروسية التي خاضت غمار حرب طاحنة كانت ولا تزال وطن الادباء ومنبت الكتبة والشعراء الذين ظهروا كواكب لامعة فأنارت حالك ليل من الجهل خيم على تلك البلاد طويلاً وهم كما قال فيهم كاتب فرنسي كبير « انه اذا وضعت الامبراطورية الروسية في كفة ميزان ووضع ادباؤها وشعراؤها في كفة أخرى رجحت كفتهم لانهم لا يكتبون بل يوحون، ولا يقولون بل يفعلون، فأدبهم هو وحي النفس والقلب المتألمين. فاذا غمسوا القلم فبدم القلب وذوب النفس»

واذا ذكر ادباء الامة الروسية وفلاسفتها كان تولستوي الزعيم المقدم. او على حد التعبير الروسي انه « الرجل الواقف على برج الادب العاجي » وهاكم نبذة من حياته.

ان سنة ١٨٢٩ لم تنزل هاوية الابد قبل ان اكتحلت عيناها برؤية تولستوي طفلاً تحبوه آلهة الفن والآداب أثمن عطاياها، وشهر آب من تلك السنة لم تتصرم انفاسه قبل ان اودع ذمة الدنيا مولود الفلسفة نابغة من نوابغ العالم

في ياسانا بانوليانا، تلك القرية الصغرى المجهولة في رقعة البلاد الروسية ولد رسول الفن فاعتزت بعد خمول وشرفت بعد ضعة وأصبحت كبرى قرى البلاد الروسية بل بين بلدان العالم أجمع

ان القدر، وما أمرّ قضاء القدر، شاء ان يلقي على هذا الطفل الدروس، فحرمه ابوين متحدرين من أشرف انيوتات الروسية، فكفلته عمة له كانت له الام الرءوم، وظل يذكرها طول حياته. دعت له نخبة من الاساتذة فخرجوه في العلوم واللغات. ولما حان الوقت لادخاله الجامعة ارحل الى جامعة قازان. الا ان عهده لم يطل فيها اذ دعي الى الجندية دفاعاً عن وطنه. لان حرب القرم نشبت اذ ذاك. فخاض غمارها وشرى وبيع على حد قول عنترة الفوارس. أوحت الينا تلك الحرب مواضيع عديدة عالجها بعقل الفيلسوف وقلم الاديب، فجاءت قصصاً متينة المبنى بليغة المعنى شيقة الاسلوب. أو كما قال فيها احد المعجبين بها انها وعاء ذهبي للحقيقة وبيت للحكمة» عرفت بقصص من سفستوبول

طارت شهرة هذه القصص في الآفاق الروسية وأقبل الناس على قراءتها إقبالهم على الماء النمير، وتوقعوا نكاتها تسلم صولجان الكتابة، فتم له ذلك وأصبح الهلال بدراً كاملاً

ولما وضعت تلك الحرب أوزارها عاد الى بطرسبرج او لينين غراد كما يدعونها اليوم، واذا بنوادي الادب ودور الجامعات تتسابق الى دعوته وتحسب انتسابه اليها شرفاً ما بعده شرف، وفتحت له قصور العظماء وردهات الكبراء، فاغترف من ملاذ الحياة بكلتا اليدين وطابت له

مناهل تلك العاصمة الصاخبة بمظاهر الشرف والبذخ ، وقف على حياة الخاصة والعامة وما يتخلل الاولى من فساد وما عليه الثانية من بؤس وشقاء

فعافت نفسه الحياة الاولى الجوفاء وعز عليه ان يرى الحق عبداً والباطل سيداً والرذيلة فضيلة والفضيلة معرة وجموداً والنفس منغمسة في وحأة المفاسد ، فهجر تلك العاصمة ووجهته فرته المتواضعة ، فتزوج من امرأة جاءت له ببنين وبنات ، وعكف على الكتابة معالجاً مواضيع عديدة اجتماعية وادبية وتاريخية وفلسفية وأبرزها في ثوب من الروايات قشيب ، فعلا نجمه وأتته الشهرة تجرر أذيالها منقادة اليه

ترى ما الفكرة التي تخللت كل مؤلفاته وما واسطة العقد في رواياته ؟

وما الغاية من استخدامه القلم ؟ الربح الجزيل ؟ وهو الغني الكبير ! انه نفسه يكفينا مؤونة البحث عن هذه الفكرة التي ملكت عليه زمام القلب والعقل ، انها فكرة الحق والجهاد في سبيله ، الحق الذي جرأه فنا بالى بسطوة عظيم ولا عيء بسخط كاهن قديم . كانت فكرة الحق المحور الذي تدور عليه مؤلفاته جميعها كبيرها وصغيرها ، فانفتحت لتلك الصيحة أذان صمٌّ وأقضت تلك الصخرة مضاجع الكثيرين من ذوي السلطان العالمي والروحي ، وانهم كما انهم صنوه في القديم سقراط الفيلسوف اليوناني ، انه يفسد الشبيبة فكادوا له كثيراً ، وضاقت نفسه بما رحبت بدسائس أولئك الاقوام فرفع الصوت جهرة مهدداً انه سيغادر أرض روسيا الى انكلترا موطن الاحرار وموئل الفكر ، كما قال في ندائه الى بني قومه ، ولو وقف الامر عند هذا الحد فهان ، الا انه رأى ان الحق الذي نذر حياته كلها يقضي عليه ان يشاطر الفلاحين أرضه الواسعة فحاول ذلك فهبت عائلته تعارض فكرته هذه وترى فيها القضاء على هنائها اذ يسلبها مورد عيش رغيد ويساويها بالفلاح الوضيع فتكدر صفو حياته ، وصمد لتلك الصدمة وساوى نفسه بالفلاح فارتدى ملابسه وعاش عيشه يشق الارض بمحراثه ويخالطهم مخالطة رفعت شأنه في عيونهم ، ثم نصب نفسه استاذاً لابنائهم ، فأنشأ مدرسة قام هو بنفقاتها واختط للتربية خطة جديدة مبتكرة أخذ بها الكثيرون في تربية نشئهم في الكثير من البلدان الاوربية ، ومن شاء الاطلاع على اساليبه في التدريس فعليه ان يقرأ كتابه « مدرستي » الذي بولياناه المترجم الى معظم اللغات الحية . وأصبحت تلك التربية كعبة يؤمها الناس من كل فج عميق بينهم الاساتذة والعلماء والادباء ورجال الفكر . وكثيرون من طلبة الجامعات حذوا حذوه وعاشوا عيشته مهتدين بهديه وفي هذه الآونة أخرج روايته « الحرب والسلام »

ويجدر بي ان اذكر شيئاً عنها وهي غرة مؤلفاته وعنوانها ينبئك عن موضوعها ، انه عالج فيها مشكلة الحرب وما يحول دون السلام معتقداً ان فكرة الفرد المستبد هي مثار كل حرب ، وذلك الفرد هو نابليون الكبير والبطل الثاني القائد الروسي كوتوزوف . فنابليون

الاول تدور أعماله على محور ارادته ولا يقيم للنتائج السيئة وزناً ولو خرب العالم وغرق أبناؤه في بحار من الدم والحديد ما دامت ارادته الدافعة الى ذلك

والثاني شيخ علت به السن مفكر جد مفكر ، ويظن التفكير لا يعارض في حسن ولا يسمح بضار ، ويرى ان سوق الجنود الى ساحات القتال لا يسلم أمره الى رجل واحد ، ثم يمضي في وصف القتال أبلغ وصف . وأبطال هذه الرواية عديدون ومختلفون مهنة ونظراً الى الحياة فمنهم من تصب فيه جداول عديدة من نزعات النفس ورغائب القلب ، وانك إذا قرأتها لا تقول ما أعجب هذه الرواية وما أغرب ترتيبها التاريخي ، بل تشعر انك نفسك واحد من أولئك الابطال وأنهم ينطقون عما تشعر به وبهم صلة شديدة بك ، أو كما قيل تقرأ فيها نفسك ، وكل من قرأها اعترف أن مؤلفها رسول الفن ونبي الادب وهو نفسه كان معجباً بها أيما إعجاب وكان كلما قرأ منها شيئاً على زوجه حرك رأسه تأثلاً « صوفيا » وحق الله ان الشيخ يكتب حسناً ، انها انجيل ثان لاوروبا . وأبي عند كتابتها كنت أبني قطعة من جدي في الدواة . وله روايات أخرى مثل البعث ، وانا كارينينا ، وكتاب دوائر القراءة وهو كتاب اقتطفه مما استحسنه من آراء وأقوال لكبار الفلاسفة والحكماء والادباء فجاء في جزئين وجعل لكل يوم من أيام السنة فصلاً خاصاً وفي آخر كل أسبوع قصة أو بحث ، منه ما عربه بنفسه ، ومنه ما لخصه لكبار الادباء ، ومنه ما وضعه بنفسه . وإذا علمت أيها القارىء الكريم أن تولستوي قرأ في حياته أربعة عشر ألف كتاب في لغات متعددة وترك على هوامشها تعليقات كثيرة أدركت ما لهذا الكتاب من أهمية ، فهو كما يقول فيه الروس أقنعهم . دائرة معارف للنفس والقلب ، النفس السابحة في فضاء اللانهاية والقلب النابض بحب الانسان ، ففي هذا الكتاب حكمة الانسان في شتى العصور ، ولكن أمة هدفها الاعلى في حياتها فيه ، فهو لم يكتب لامة من الامم ولا لجنس من الاجناس بل للانسانية جمعاء . لأن مؤلفه رسول الانسانية فلا غرو إذا رأينا المرحوم شاعر النيل حافظ ابراهيم يرثيه بهذه الابيات مكبراً وفاته ومعظماً حكمته :

ولست أبالي حين أبكيك لاورى ... حواليك جنان أم حواليك سعير
فاني أحب النابغين لعلهم ... وأعشق روض الفكر وهو نضير
حياة الورى حرب وأنت تريدها ... سلاماً وأسباب الكفاح كثير
تحاول رفع الشر والشر واقع ... وتطلب محض الخير وهو عسير

هذا هو تولستوي ، وما تولستوي ممن يستوفى حقه من البحث في مقال وجيز مثل هذا وما ذكرناه قليل من كثير .

أديب سعادة فهمي